

نشأة السينما وتطورها في العالم

السينما، فن طلع على العالم من أوروبا، واجتاز مرحلة تطويرية طويلة، اشتركت فيها القارة الأمريكية، أو بعبارة أدق الولايات المتحدة الأمريكية مع بعض دول أوروبية، في مقدمتها فرنسا وإنجلترا.

ومن يراجع الكتب التي أرخت للسينما سواء الأجنبية منها أو العربية يجد اضطراباً كبيراً في أوليتها، ورصد تدرجها، وسبب ذلك أن تحريك الصور الثابتة مر بأطوار وتجارب كثيرة سجل بعضها وأهمل بعضها الآخر .

والسينما مصطلح واسع شديد العمومية، وهو يضم تحت عبايته كل ما به علاقة بفن الفيلم من تاريخ، واتجاهات، ونظريات، وحرفيات، ونقد، ويضم كذلك أنواع الفلم الروائية، والتسجيلية، وأفلام تحريك الرسوم المتحركة وغير ذلك مما يتعلق بهذا الفن الجميل.

في اطار السرد التاريخي لأهم التطورات في عالم السينما ، يذكر لنا تاريخ السينما أن (توماس أديسون) المخترع الأميركي قام في العام ١٨٩٤ ، أي قبل عامين من الولادة الرسمية لفن السينما على يد الفرنسيين الأخوان أوجست ولويس لوميير Auguste & Louis Lumiere ، بتحقيق فيلم رسوم متحركة حول إعدام (ماري ستيوارث) ملكة أسكتلندا وعرضه في آلة سحرية كان اخترعها من قبل.

أما البداية الحقيقية لميلاد صناعة السينما، فتعود إلى حوالي عام 1895م، نتيجة للجمع بين ثلاثة مخترعات سابقة هي اللعبة البصرية، والفانوس السحري، والتصوير الفوتوغرافي، فقد سجل الأخوة أوجست ولويس لوميير Auguste & Louis Lumiere اختراعهما لأول جهاز يمكن من خلاله عرض الصور المتحركة على

الشاشة في 13 فبراير 1895 في فرنسا، على أنه لم يتهيأ لهما إجراء أول عرض إلا في 28 ديسمبر من نفس العام، فقد شاهد الجمهور أول عرض سينماتوغرافي في قبة الجراندي كافيه Grand Café، الواقع في شارع الكابوسين بمدينة باريس. لذلك فالعديد من المؤرخين يعتبرون لويس لوميير المخترع الحقيقي للسينما، فقد استطاع أن يصنع أول جهاز لالتقاط وعرض الصور السينمائية.

من تاريخ عرض لوميير أصبحت السينما واقعاً ملموساً. بعدها عممت التجربة في الولايات المتحدة فقد شاهدت نيويورك في أبريل 1895، عرضاً عاماً للصور المتحركة. ثم ما لبث آرمان وجينكينز، أن تمكنا من اختراع جهاز أفضل للعرض استخدماه في تقديم أول عرض لهما في سبتمبر من السنة نفسها، الأمر الذي حدا بتوماس إديسون Thomas Edison لدعوتها للانضمام إلى الشركة التي كان قد أسسها لاستغلال الكينيتوسكوب. وفي العام التالي تمكن إديسون من صنع جهاز للعرض يجمع بين مزايا الجهازين، وأقام أول عرض له في أبريل 1896 فلقى نجاحاً كبيراً.

ويقسم الناقد والمؤرخ السينمائي الأمريكي فيليب كونجليتون، المراحل التي مر بها تطور الفيلم السينمائي من منظور التأثر بنمو السوق الى العصور التالية:

1- عصر الريادة (1895 - 1910)

في هذا العصر بدأت صناعة الفيلم، الكاميرا الأولى، الممثل الأول، المخرجون الأوائل ، كانت التقنية جديدة تماماً، ومعظم الأفلام كانت وثائقية خبرية، وتسجيلات لبعض المسرحيات ، وأول دراما روائية كانت مدتها حوالي خمسة دقائق، وبدأت تصبح مألوفة حوالي عام 1905 مع بداية رواية الفنان الفرنسي جورج ميلييه ، رحلة

إلى القمر A Trip to the Moon عام 1902، وكانت الأسماء الكبيرة في ذلك الوقت هي (إديسون، لومبير، وميليه) الذين كانوا يبهرون الجمهور بأفلامهم القصيرة ، غير ان ما يجب ان نأخذه بنظر الاعتبار عند مشاهدة هذه الأفلام أنها كانت تشكل المحاولات الأولى، وأن السينما كانت وما تزال أداة اتصال جديدة، فلا يجب أن يُنظر إليها على أنها تافهة، ربما تكون حقاً بدائية، ولكن يجب إدراك أن الطاقة والعمل الذي بذل لإنتاج هذه الأفلام كان مبهراً، وأن أخذ المنتجين على عاتقهم مهمة إنتاج هذه الأفلام كان أمراً متميزاً.

2- عصر الأفلام الصامتة (1911-1926)

يتميز هذا العصر عن سابقه بكثرة التجريب في عملية مونتاج الأفلام، فلم تكن هذه المرحلة صامتة بالكامل، فقد كانت هناك استخدامات لطرق ومؤثرات صوتية خاصة، بينما لم يكن هناك حوار على الإطلاق ، فاختلف الشكل واختفت التسجيلات المسرحية لتحل محلها الدراما الروائية، ويعد هذا العصر أيضاً بداية لمرحلة الأفلام الشعرية ذات الطابع التاريخي الأسماء الشهيرة في هذه المرحلة ضمت (شارلي شابلن Charles Chaplin، ديفيد جريفيث David Griffith) وغيرهم. وكلفت أفلام هذه المرحلة أموالاً أكثر، وبدأت مسألة نوعية وجودة الفيلم تثير جدلاً.

3- عصر ما قبل الحرب العالمية الثانية (1927-1940)

يتميز هذا العصر بأنه عصر الكلام أو الصوت، ويبدأ هذه العصر بإنتاج أول فيلم ناطق بعنوان "مغني الجاز" عام 1927، بالإضافة إلى أفلام ناطقة أخرى متنوعة أنتجت في هذه المرحلة، كما شهدت أفلام الثلاثينيات استخداماً أكثر للألوان، وفي هذه المرحلة أيضاً ظهرت العروض النهارية للأفلام، وبدأت تتنامى في المسارح مع

موجة الكوميديا، وبروز نجوم لفن السينما انتشرت أسماؤهم في ذلك الحين، واهمهم (كلارك جابل Clark Gable ، فرانك كابرا Frank Capra ، جون فورد John Ford) .

4- العصر الذهبي للفيلم (1941-1954)

أحدثت الحرب العالمية الثانية كل أنواع التغييرات في صناعة الفيلم، فخلال وبعد الحرب ازدهرت الكوميديا بشكل ملحوظ، وتربعت الأفلام الموسيقية على عرش السينما، كما انتشرت أفلام الرعب، ولكن باستخدام ضئيل للمؤثرات الخاصة بسبب ارتفاع تكاليف الإنتاج، فقد صنعت نفقات الإنتاج فرقاً ملحوظاً بين الميزانيات الكبيرة والصغيرة للأفلام، ولجأت استديوهات السينما لاستخدام ميزانيات صغيرة لإنتاج أفلام غير مكلفة للعامة، وذلك لجذب الجماهير لذلك ظهرت الأفلام الجماهيرية في هذه المرحلة والتي يمكن تصنيفها إلى أفلام استخبارات، أفلام غابات ، كما تضمنت المرحلة أفلام الخيال العلمي فقد ظهرت حوالي عام 1950. والأسماء الكبيرة القليلة التي ظهرت في هذه المرحلة هي (كاري جرانت Cary Grant ، همفري بوجارت Humphrey Bogart ، أودري هيبورن Audrey Hepburn) .

5- العصر الانتقالي للفيلم (1955-1966)

يُسمى فيليب كونجليتون هذه المرحلة بالعصر الانتقالي، لأنه يمثل الوقت الذي بدأ فيه الفيلم ينضج بشكل حقيقي، فقد ظهرت في هذا العصر التجهيزات الفنية المتطورة للفيلم من موسيقى، وديكور، وغير ذلك. وفي هذا العصر بدأت الأفلام من الدول المختلفة تدخل إلى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال حوائط هوليوود السينمائية، وبدأت الأفلام الجماهيرية تستبدل بأفلام رخيصة، كما بدأت الاستوديوهات الكبيرة

تفقد الكثير من قوتها في مجال التوزيع، كما ظهر لصناعة السينما منافس جديد يسمى التلفزيون، وهو الامر الذي دفع السينما الى ان تفتح موضوعات اجتماعية أكثر نضجاً، وانتشرت الأفلام الملونة لتصبح الأغلبية بجوار الأبيض والأسود، وضمت الأسماء الكبيرة في سينما هذه المرحلة (ألفريد هتشوك Alfred Hitchcock، مارلين مونرو Marilyn Monro، واليزابيث تايلور Elizabeth Taylor) .

6- العصر الفضي للفيلم (1967-1979)

يرى بعض المؤرخين أن هذه الفترة بالفعل، هي مرحلة الفيلم الحديث، وكانت مرحلة جديدة وقتها وبيدأ العصر الفضي للسينما بإنتاج فيلمي الخريج و بوني وكلايد عام 1967.

وقد ظهر في هذه المرحلة عدد من الأفلام الناضجة الخارجة عن الأخلاق العامة وكان من جراء انتشار هذه النوعية ، أن ظهرت أنظمة جديدة للرقابة وتكونت الأسماء الشهيرة التي حكمت هذا العصر أمثال فرانسيس كبول Francis Coppola، وداستن هوفمان Dustin Hoffman، ومارلون براندو Marlon Brando. وقد انخفضت نسبة أفلام الأبيض والأسود إلى 3% من الأفلام المنتجة في هذه الفترة ، فأصبحت هوليوود تعرف حقاً كيف تصنع أفلاماً ، وأصبح هناك فارق كبير بين الميزانيات الكبيرة والضئيلة للأفلام .

7- العصر الحديث للفيلم (1980-1995)

بدأ هذا العصر عام 1977، عندما أنتج فيلم "حروب النجوم" Star Wars، الذي يعد أول إسهام للكمبيوتر والتقنية الحديثة في تصميم المؤثرات الخاصة. لكن فيليب

كونجليتون يبدأ هذا العصر عام 1980، لأنه يعتبر أن فيلم "الإمبراطورية تقاوم" نقطة البداية، ففي هذه المرحلة بدأ انتشار الكمبيوتر والفيديو المنزلي ، واعتمدت هذه المرحلة اعتماداً كبيراً على الميزانية الضخمة بدلاً من النص والتمثيل، ولكنها احتفظت بالقدرة على إنتاج نوعية جيدة من أفلام التسلية الممتعة.

كما شهدت هذه المرحلة تصاعداً في العلاقة بين صناعة السينما، وبين أحدث وسائل المعلومات والاتصال، وهي شبكة الإنترنت ، اذ بدأت العلاقة بين السينما والإنترنت، بشكل تقليدي حيث استغلت السينما الشبكة الوليدة كوسيلة للنشر العلمي والتقني عام 1982، وتصاعدت العلاقة حتى أصبحت شبكة الإنترنت وسيلة لنشر، أو لعرض الأفلام السينمائية، إضافة إلى تسويقها أو الدعاية لها. ففي عام 1982 نشر الناقد الأمريكي إليوت ستاس المقال النقدي الأول على الإنترنت حول فيلم "غاندي"، Gandhi عبر شبكة Compuserve، وفي عام 1990 أطلق كول نيدهام قاعدة بيانات السينما على الإنترنت .